

التفسير المختصر - سورة العنكبوت (٢٩) - الدرس (٦٣) ، ولأن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحم لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-٠٩-٢٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسْتَمِعُونَ القول فَيَتَبَعُونَ أَحْسَنَهُ وَأَدْخِلُنَا بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ.

أيها الإخوة الكرام، قضية الإيمان بأن الله خالق الكون، لم يُلحّ عليها الإسلام؛ لماذا؟ لأنها ضرورة فطرية ! لأن ما من إنسان على وجه الأرض بفطرته، ومن دون تكليف يؤمن بأن لهذا الكون خالقاً، والدليل قوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاوَاتِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بِلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٣)

[سورة العنكبوت]

وقال تعالى:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بِلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٥)

[سورة لقمان]

فَقضية الإيمان أن الله خالق الكون؛ هذه ضرورة فطرية، والقرآن لم يلحّ عليها، ولكن الحجّ على إفراد الله وتوحيد الله تعالى بالعبادة، الحجّ على توحيد الألوهية فهناك توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، فتوحيد الربوبية أن تومن أن لهذا الكون خالقاً وممداً، خلق وأمد، قال تعالى:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَنِّيَ مَعَ اللَّهِ بِلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (٦٠)

[سورة النمل]

أما العلاقات والتصرفات والأشخاص والأحداث بيد من؟ التركيز على هذا الإيمان، وأن تومن أن في السماء إليه وفي الأرض إليه، وأن الأمر كلّه بيده، والحقيقة أن الإنسان لن يستقيم إلا إذا آمن بوحدانية الله تعالى؛ في ذاته وأفعاله وصفاته، فإذا أردت أن تعرف فحوى دعوة الأنبياء جميعاً إنّها التّوحيد، ولذلك لا إله إلا الله كلمة التّوحيد وهي التي تُعدّ شعار الإسلام، ولا رازق إلا الله، ولا حافظ إلا الله ولا مذلّ ولا رافع إلا الله، قال تعالى:

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾

[سورة هود]

فَهُوَ تَعَالَى مَا سَلَّمَكَ لِأَحَدٍ، وَلَوْ سَلَّمَكَ لِأَحَدٍ لَكَانَتْ لَكَ الْحُجَّةُ أَنْ تَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا سَأَعْبُدُ مَنْ سَلَّمَنِي إِلَيْهِ ! وَلَوْ بَدَى لَكَ أَنَّ هُنَاكَ أَقْوِيَاءُ وَلَوْ بَدَى لَكَ بِهَذِهِ الْعَيْنِ الظَّاهِرَةُ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَفْعُلُ، وَمَنْ لَا يَفْعُلُ، وَمَنْ يُعْطِي، وَمَنْ يَمْنَعُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَبَّحَهُ وَتَعَالَى مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ، وَيَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ.

لَوْ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَهُ وَتَعَالَى خَلْقَ وَأَمْدَ وَتَرَكَ، يَنْبَغِي أَنْ تَعْبُدَ غَيْرَهُ ! فَلَوْ أَنَّهُ تَعَالَى سَلَّمَ أَمْرَكَ لِزِيَّدٍ أَوْ عُبْدٍ يَنْبَغِي أَنْ تُرْضِي أَحَدَهُمَا لِتَنْجُوا مِنَ الْآخِرِ ! أَمَّا لَمَّا أَمْرَكَ اللَّهُ أَنْ تَعْبُدَهُ وَحْدَهُ، مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ أَمْرَكَ كُلُّهُ بِيَدِهِ تَعَالَى، فَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ أَصَابَهُ ضَغْطٌ، قَالَ تَعَالَى:

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّاهُ فَاعْبُدُونِ﴾ (٥٦)

[سورة العنكبوت]

جَمِيعُ الْأَعْذَارِ تَسْقُطُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! الْإِنْسَانُ جَاءَ لِلْدُنْيَا لِعِبَادَةِ اللَّهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْبُدَهُ فِي أَيِّ مَكَانٍ، فَلَوْ أَنَّ مَكَانًا مَنْعَةً مِنْ عِبَادَتِهِ عَلَيْهِ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ مَكَانٍ أَخْرَى، وَلَا عُذْرٌ لَهُ لَأَنَّ مُهِمَّتَكَ الْأُولَى عِبَادَةُ اللَّهِ سَبَّحَهُ وَتَعَالَى، فَلَذِكَ الْآيَاتُ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ مَعْذُورًا أَنْ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَا وَجَدْتُ بِمَكَانٍ مُنْعَتُ أَنْ أَعْبُدَكَ فِيهِ ! قَالَ تَعَالَى:

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّاهُ فَاعْبُدُونِ﴾ (٥٦)

[سورة العنكبوت]

وَحِينَما قَدِيمَتْ إِيَّاهُي ؛ أَيْ أَنَّ هَذَا التَّقْدِيمُ يُفِيدُ الْحَصْرَ وَالْقَصْرَ، أَيْ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَعْبُدَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْحَقْيَقَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُسْتَطِيعُ بِلِسَانِهِ أَنْ يَقُولَ: هُنَاكَ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَكِنْ يَتَعَالَى مَعَ أَشْخَاصٍ وَكَانُوهُمْ أَلَّهُمَّ يُرْضِيُّهُمْ وَيُعْصِيُّهُمْ، وَيَرْجُوُ عَطَاءَهُمْ وَلَا يَرْجُو مِنَ اللَّهِ وَيُحِبُّهُمْ أَشَدَّ مَمَّا يُحِبُّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَنْتَ مُعَالَمُكَ لَهُ كَإِلَهٍ هِيَ عِبَادَةُ مَنْ دُونَ أَنْ تَشَعُّرُ، لَذِكَ قَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ أَغَيْرُ اللَّهِ أَتَّخُذُ وَلِيًّا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٤)

[سورة الأنعام]

الْقَضِيَّةُ الْآنَ قَضِيَّةُ مَصِيرَيَّةٍ، فَحِينَما تَعْتَقِدُ أَنَّ جِهَّةً فِي الْأَرْضِ بِيَدِهَا كُلُّ شَيْءٍ ؛ هَذَا اعْقَادٌ حَاطِئٌ لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضَ زُخْرُفَهَا وَازْيَنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرَنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٤)

[سورة يونس]

الْأَقْوِيَاءُ مِمَّا بَدَأَتْ لَكُمْ قُوَّتُهُمْ إِنَّهُمْ فِي يَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَخَطَطُهُمْ تَسْتَوْعِبُهُمْ خَطَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَذَا الإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلْقٌ وَأَمْدَ ؛ هَذَا سَمَّاًهُ الْعُلُمَاءُ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةُ، هَذَا الإِيمَانُ لَمْ يُلْحَّ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ لَأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ بِفَطْرَتِهِ مُؤْمِنٌ حَتَّىٰ الَّذِينَ عَبَدُوا الْأَوْثَانَ وَحَتَّىٰ الْمُشْرِكُونَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بِلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٥)

[سورة لقمان]

فالعبرة لا أن تؤمن بأنَّ الله خلق و أمد فقط، العبرة أن تؤمن أنَّ الله تعالى فعال لما يريد، بيده كلَّ شيء وببيده مقاليد السماوات والأرض إلهه يرجع الأمر كلَّه، قال تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (٨٤)

[سورة الزخرف]

أوضحَ مثلاً أريدهُ كثيراً ؛ أنت معك مُعاملة تحتاج إلى موافقة على المغادرة، دخلت إلى بناء ثلاثة طوابق وفيه مائتان موظف، فتقول من بيده حق التوقيع فيقال لك: المدير العام هذه المُعاملة لا يستطيع أن يوقعها أحد سواه، فهل تبذل ماء وجهك لإنسان آخر؟! وهل تترجى موظفاً أو كاتباً هناك؟ فكل هؤلاء ليس بيدهم الأمر، أما حينما توافق أنَّ الأمر كلَّه بيده الله، الآن تعبده وحده، وتخلص له وحده، وتحببه وحده، وتخافه وترجوه وحده، فالشهادة باللسان شيء، وأن تتعامل مع العباد لا أنهم آلة، بل على أساس أنهم عبيد الله تعالى، لذا مُنكحُ التوحيد مُنكحٌ مذهب، فكلَّ أنواع القلق والخوف والريباء والنفاق؛ كلَّ هذا من ضعف التوحيد وقد ذكرتُ لكم أنَّ الخليفة الرشيد حينما جاء الحج قال: أريد عالماً جيداً أتعلم منه مناسك الحج، وكان وقتها الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى، فقيل له: اذهب معنا إلى الخليفة، فقال لهم: قولوا له: إنَّ العلم يُؤتى ولا يأتي ! فلما بلغوه ذلك قال هذا الخليفة: صدق، نحن سنأتيه، ثم قال لهم الإمام مالك: قولوا له أن لا يتخطى رقاب الناس، فقال: الخليفة: صدق، سأجلسُ حيث ينتهي بي المجلس، ثم جاء الخليفة وجلس بـنهاية المجلس على كرسيٍّ فقال الإمام مالك: من تواضعَ لله رفعَه ومن تكبرَ وضعَه، وحينها جلس الخليفة على الأرض.

وهذا أحد الخلفاء، وأطنه المنصور، التقى بأبي حنيفة النعمان فقال: يا أبا حنيفة لو تخشيتنا؟ فقال: ولم أتخشاك وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه، وهل يتغشّاك إلا من خافكم على شيء؟ وإنك إن أكرمتني فتنتني، وإن أبعديتني أزرتني !! فالقصد أن الإنسان له إله واحد، العبرة والعزة في التوحيد، فالطمأنينة والعزّة والاستقامة والإخلاص من التوحيد، والنفاق والكذب والريباء والتذلل للناس من ضعف التوحيد، والتّضّعُف، وهو التمسكُ للغنى، من جلس إلى غنيٍّ فتضّعُف له ذهب ثلثا دينه؛ ابتغوا الحوائج بِعِزَّةِ الأنفس، فإنَّ الأمور تجري بالمقادير، لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه.

أيها الإخوة، الذين كلَّه توحيد، والعلماء قالوا: نهاية العلم التوحيد والنفس تتوارز بالتوحيد، وتعترض وتنقى بالتوحيد، أما إذا أشرك تزعزع، فلو أراد أن يرضي الناس، بهذه غاية لا تدرك، ولو اتفقا جدلاً أنَّ إنساناً أرضى كلَّ الناس، فهو منافق، متلون كالحرباء فلذلك الإنسان بالتوحيد تقوى نفسه

و يطمئن قلبه، و بالتوحيد لا يعبأ بأحد و هل هناك موقف أشد من فرعون؟ كان يقتل أبناءبني إسرائيل ويستحيي نسائهم، فلما آمن السحرة بموسى قال لهم فرعون:

﴿قَالَ آمَتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلِمْتُمُ السِّحْرَ فَأَقْطَعْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ لِأَصْبِلَتُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (٧١)

[سورة طه]

أن الإنسان يعجب من هذه المواقف، فالحجاج كما قلت لكم أراد أن يقتل الحسن البصري لما بلغه شيء من أمره، فقال: والله لا أرى نفسي من دمه، فجيء بالحسن البصري ليقتله، وجاء السيف ومدد النطع فتكلم الحسن بكلمات ما سمعها أحد، فما كان من الحجاج إلا أن وقف له و استقبله و أجلسه على سريره وقال له: يا أبا سعيد أنت سيد العلماء و سأله سؤالاً و عطره و شيعه، فتبعد الحاجب وقال له: يا أبا سعيد لقد جيء بك لغير ما فعل بك فماذا قلت؟ قال: قلت: يا مولاني في وحشتني و يا ملاذي عند كربلاة أجعل نعمتي على برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم "فليس لك إلا الله عز وجل والإنسان يكون حكينا و يأمر بالمعروف و يحبب الأمور بشكل دقيق لكن لا يذل نفسه و لا يخاف إلا من الله عز وجل، فالتركيز على عقيدة التوحيد ضرورية وشيء بديهي إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام أشار كثيرا إلى توحيد الألوهية فقال:

((لا إله إلا الله حصن من دخلها أمن من عذاب الله))

وقال:

((لا إله إلا الله لا يسبقها عمل و لا تترك ذنبا..))

إذا آمنت بلا إله إلا الله، أنه لا مسيرة إلا الله ولا فعل إلا الله ولا معطي إلا الله فقد دخلت في حصن، فإذا كان في إيماننا تقدير في التوحيد لمجرد أن تطيع إنسانا خوفاً أو طمعاً وتعصي الإله فقد نقص توحيدك، ولكن الإنسان المؤمن لا يرضي إلا الله، لذلك أيها آل الإخوة هناك في الإسلام نهايتان ؛ نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل النقوى، والأعمال كلها لا تقبل إلا إذا كانت مطابقة للشرع، لذلك يقول الإمام الفضيل: "لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصا صوابا" ، خالصا هو الذي ابتغي به وجه الله، ولن تستطيع أن تتبعي بعملك كلها وجه الله إلا إذا وحدته، والصواب ما وافق السنة، فإذا وحدته فهو نهاية العلم وإذا أطعته فهو نهاية العمل، فأنت تحقق الهدف الكامل من وجودك إذا وحدته وعبدته، لذلك أكثر من أربعين آية في القرآن:

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣٢)

[سورة المؤمنون]

ودعوة الأنبياء لخصها الله بقوله:

﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣٢)

[سورة المؤمنون]

ثم لخص فحوى دعوى الأنبياء جميعاً فقال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ نَّا إِلَهٌ إِلَّا إِنَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي﴾ (٢٥)

[سورة الأنبياء]

فهناك كلمتان: التوحيد والعبادة التوحيد نهاية العلم والعبارة نهاية العمل، فإذا وحدتَ وعبدتَ حفقت الهدف من وجودك على وجه الأرض.

والحمد لله رب العالمين